Migration is context for understanding the lifestyle : an anthropological study in the city of Ouargla

Received: 11/06/2023; **Accepted:** 31/10/2023

بودماغ خولة*[1]، عوايجية سماح[2]

1 جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر.
2 جامعة بوزريعة، الجزائر.

الهجرة سياق لفهم نمط العيش -دراسة أنثروبولوجية بمدينة ورقلة

ملخص

تعبر ظاهرة الهجرة من المنظور الأنثروبولوجي عن مجموعة الأساليب والاستراتيجيات والممارسات التي يوظفها المهاجر لتحقيق الاندماج في المجتمع المحلي، وهي بذلك تبرز بتشكيل نمط عيش خاص يساهم في إحداث التغيير الإجتماعي– الثقافي، مؤكدة بذلك على حتمية الديناميكية في مقابل استاتيكية الثبات والاستقرار، سنحاول من خلال هذا المقال تسليط الضوء على اسهام الهجرة في فهم نمط العيش.

الكلمات المفتاحية:
الهجرة؛
الثقافة؛
نمط العيش؛
الممارسات الاجتماعية؛
الهوية.

Abstract

The phenomenon of migration from an anthropological perspective expresses the set of methods, strategies and practices employed by the immigrant to achieve integration into the local society, and thus results in the formation of a special way of living that contributes to bringing about social-cultural change, thus emphasizing the inevitability of dynamism as opposed to the static stability and stability. Through this article, we will try to shed light on the contribution of migration to understanding the way of life.

Keywords:
Migration;
Culture;
way of life ;
social practices ;
identity.

* Corresponding author, e-mail: khaoulaasinat@gmail.com

Doi:

© Constantine 1 University, Algeria, 2023.

I–مقدمة:

باتت الهجرة غير الشرعية تمثّل تهديدا آخر من التهديدات التي تواجهها الجزائر بسبب استمرار تدفق عدد كبير من المهاجرين بطرق شرعية وغير شرعية لا سيما من دول جنوب الصحراء سواء كانت مجاورة أو دول إفريقية بعيدة، مما حمل الحكومات المتعاقبة على الأقل في العشر سنين الفائتة، لاتخاذ مجموعة من التدابير لمواجهة هذه الظاهرة خاصة وأنها صارت تمثل خطرا على الأمن القومي للجزائر من عدة نواحي، فمن الناحية السياسية بدأت صورتها تهتز لدى جيرانها في شمال البحر المتوسط الذين يعتبرون أن الجزائر لا تعمل بجد لصد الأعداد الهائلة من المهاجرين الذين يتخذونها معبرا نحو أوروبا أرض الأحلام لكل إفريقي أما من الناحية الأمنية فالأمر ينقسم إلى شقين، شق يرتبط بحماية صحة المواطن الجزائري من مختلف الأمراض التي قد ينقلها هؤلاء المهاجرون من دولهم الأصلية وشق آخر وهو المتمثل في خطر الإرهاب الدولي الذي ينام على أموال كبيرة يدور في فلكها يكون مصدرها في الغالب تجارة السلاح والمخدرات، وهو ما يجعل مختلف القوى الأمنية في يقظة مستمرة خوفا من انخراط الشباب الجزائري في تلك الشبكات خاصة وأن تجربة العشرية الدموية غير بعيدة عنا ولمَّا تزُل بعد كل مسبباتها، دون أن ننسى الخطر الدائم الذي يعكسه الموقع الجغرافي للجزائر بشساعة حدودها التي تطل على عدة جبهات للحروب لا سيما في الشرق والجنوب.

أما من الناحية الاجتماعية فلا يختلف اثنان في أن ظاهرة الهجرة غير الشرعية للأفارقة في أرض الجزائر زادت في تفاقم بعض المظاهر السلبية خاصة ظاهرة التسول وبشكل أقل حدة ظاهرة الدعارة وظاهرة استغلال اليد العاملة للأفارقة بأجرات جد منخفضة ناهيك عن الانتهاكات المتكررة لحقوق الإنسان وحقوق العمال من طرف بعض أرباب العمل الجشعين.

كل هذا يجعل من الحكومة الجزائرية في وضع لا تحسد عليه حيث تجد نفسها مجبرة على التعامل بحذر شديد مع ملف الهجرة غير الشرعية الذي ينهك كاهلها المنهك أصلا بمشاكلها الداخلية خاصة وأنها مرتبطة باتفاقيات دولية متعلقة بحقوق الإنسان وحقوق المهاجرين غير الشرعيين بالإضافة للاجئين من ويلات الحروبوليس من فائدتها الإخفاق في كل ذلك.

وتعتبر الهجرة ظاهرة بشرية موضع لمئات الدراسات السوسيوأنثروبولوجية حيث أصبحت تطرح مجموعة من التحديات على الصعيد الاجتماعي والثقافي والديمغرافي والسياسي والاقتصادي للدول المستقبلة للمهاجرين أو حتى المصدرة لها وتهتم هذه الدراسة بالهجرة من حيث المفهوم والنمط العيشي اليومي للمهاجرين الافارقة حيث يختلف بتعدد الاشكاليات الاجتماعية والدينية والثقافية وبعض العوامل السياسية والاقتصادية والتي تجعل منها هجرة غير ارادية وغير ادارية في الكثير من الأحيان حيث تعتبر هذه المتغيرات هامة في تفسير التدفقات الهجرية اذ أن الاعتبارات الاقتصادية تلعب دورا مميزا على المستويات العالمية والاقليمية والوطنية والمحلية بحيث تتحطم الى حد بعيد في استمرار وتطورات هذه الظاهرة الانسانية بحيث يقتضي تفسيرها ادراكا وتفهما دقيقا للمتغيرات التي تطرأعلى القوى الاقتصادية والاجتماعية الشاملة وانعكاساتها على القرارت الصادرة عن الافراد من أسرومؤسسات وبلدان مهما تباينت ظروفهم المعيشية

وتشكل ثقافة الفرد المهاجر من افريقيا الى ساحل صحراء الجزائر اطار المرجعي الذي يحتضن تمفصلات حياة الفرد والجماعة في سياق اجتماعي وثقافي معين وكيف يساهم هؤلاء في تطوير أساليب ووسائل التكيف مع البيئة التي تتضمن جل ممارساتهم ونشاطاتهم اليومية والروتينية المتزامنة حيث ان الثقافة تعبر عن طريق العيش في المجتمع والسياق الذي يتأسس وفقه مفهوم الاختلاف عن الاخر وخصوصية الانتماء الى المجتمع المحلي والمتماثل مع الوسط الاجتماعي حيث أن ظروف العيش في البيئات المختلفة أثر واضح على فئات المجتمع نفسيا واجتماعيا وثقافيا مايدفع هاته الفئة الى الانتقال والهجرة الى فضاءات أخرى سواء كانت حضرية أو ريفية بحثا عن سبل عيش مناسبة .

II- الطريقة والأدوات :

أولا: مفاهيم الدراسة:

1–الهجرة immigration:

تعد الهجرة من أبرز صور التغير الذي يطال بنية المجتمع الثقافية والاجتماعية، فهي تترجم فعل الانتقال والتنقل من مكان إلى آخر سواء من المجتمع الريفي إلى المجتمع الحضري أو العكس وهي تتوزع بين ماهو(قانوني أو شرعي وما هو غير قانوني أو غير شرعي)، فالإنسان يلجأ إلى الهجرة بحثا عن سبل عيش جيدة واشباعا لحاجاته أو هروبا من التهميش والمعاناة الاجتماعية. فالهجرة من هذا المنظور" هي الانتقال فرديا كان أو جماعيا من موقع إلى آخر بحثا عن وضع أفضل اجتماعيا أو اقتصاديا أو سياسيا وهذا التعريف يؤكد على أهمية العوامل التي تحفز على الانتقال ويضع العامل الاجتماعي والاقتصادي في مقدمتها، ثم تليها العوامل الأخرى التي تقف وراء هذا الانتقال الفردي أو الجماعي لفئات داخل المجتمع أو الدولة تتعرض لنقص في اشباع تلك الاحتياجات، ومن ثم يدفعها ذلك دفعا إلى التوجه بالهجرة

لمجتمعات أخرى حيث يزيد من الفرص وتحقيقا للإشباع."(الهام زايد، 2021: ص314)، **وبذلك فالظاهرة الهجرة مرهونة بمسألة الاشباع والاستقرار الاجتماعي الذي يشغل فكر الإنسان في حركيته المتواصلة عبر الزمان والمكان.**

2- الثقافة culture:

تعبر الثقافة عن مجمل التراث الإنساني الذي يكتسب عبر التنشئة الاجتماعية والممارسة وعبر الاتصال والتثاقف بين الجماعات الإنسانية، فالإنسان يكتسب ثقافته اجتماعيا وليس فطريا ويتشاركها مع أفراد مجتمعه في مختلف جوانب حياته اليومية حيث تتمظهر هذه الثقافة عبر مجموعة من العناصر المتمثلة في(طريقة الأكل واللباس، الزواج، الطقوس والممارسات المختلفة، طرق التفكير والتعبير)، وغيرها من الجوانب الحياتية الأخرى. **"فثقافة مجتمع تعني جماع ما يتم تشاركه من معتقدات، معايير، قيم، طقوس، لغة، تاريخ، معرفة و خصائص اجتماعية."**(stevebruce and steven yerley,2006: p58)

3- نمط العيشlifepatern:

تتباين ظروف الإنسان الحياتية من مجتمع لآخر ومن نمط ثقافي لآخر، حيث يتحدد نمط العيش في مختلف الممارسات والأنشطة والعلاقات والاسهامات والأساليب التي يوظفها الإنسان لبناء يومياته في شكل يضمن له قدر من إشباع للحاجات ورغباته المتنوعة، فالإنسان دائم البحث عن سبل لتحقيق لتوفير ما يحتاجه للعيش مراعيا في ذلك أساليب تنظيم وتكييف متطلباته مع ظروفه داخل الفضاء المسكون(فيزيقيا كان أو اجتماعيا)، وقد عنيت الأنثروبولوجيا بدراسة يوميات الإنسان في المجتمعات المختلفة محاولة بناء نموذج توصيفي لوضعيته وظروفه معاشة. ومنه فنمط العيش هو نتاج عملية تفاعل بين(البيئة، الإنسان والثقافة)، فالبحث في" أنماط العيش وفي أنساق العيش ينتهي بعالم الاجتماعي ضرورة البحث في الاختلافات الثقافية داخل نفس المجموعة أو الطبقة، ومن خلال هذا البحث يتم اكتشاف البعد المجالي لنمط العيش، ذلك أن الممارسة الميدانية تجعل عالم الاجتماع يدرك توزع مختلف الوحدات السكنية الحضرية يعكس علاقات فارقية ومتعارضة أحيانا. وذلك من خلال إضفاء قيم معينة على أماكن سكنية معينة غالبا ما يدخل في إطار استراتيجية سكنية معينة، والتي تدخل بدورها في إطار تصور معين عن المكانة الاجتماعية، عن الطبقة التي ينتمي إليها الفرد. إن ذلك ما يمكن التعبير عنه بالقول بأن الممارسات التصنيفية والتمييزية التي تمارس في المجال تعكس توزعا معينا للرأسمال الرمزي والثقافي، والذي بدوره يعكس توزع رأسمال المادي.(عبد الرحمن المالكي، 2015: ص49).

4- الممارسات الاجتماعيةsocial practice:

تعبر الممارسة عن مجموع الأفعال والسلوكات التي تتمظهر في أنشطة ومسئوليات يؤديها الأفراد كل حسب نوعه الاجتماعي وحسب وضعه في السلم الاجتماعي، فالإنسان يمارس نشاطات مختلفة كل منها يشبع لديه حاجة أو هدف معين، وهي التي عبر عنها الباحث الأنثروبولوجي برونسلاومالينوفيسكي بمفهوم الحاجات الإنسانيةhuman needs فإشباع هذه الحاجات يدفعه للقيام بأفعال وتحديد أساليب لبوغ ذلك ولا يتأتى إلا عبر الممارسة والتكرار."

يقول في هذا الصدد المهاجر الملقب بـ : مامادو صاحب 35سنة من هذا الجانب أن المهاجرين الأفارقة بصفة عامة أنهم يعانون من التمييز العنصري مع المجتمع المحلي وأنهم يحرمونهم من أبسط الممارسات الإجتماعية الخاصة بهم وأنهم يمنعونهم حتى من ركوب التراموای(يضحك بتحسر) ويقول لولا الظروف الاجتماعية والظروف المعيشية الصعبة في البلاد ما كنا هاجرنا بهذه الطريقة لأنه يبقى هذفنا الوحيد أوروبا أنا عن نفسي أملك حرفة الخياطة وصناعة الأحذية لكنني وجدت نفسي في التجارة بعد تعب وجهد كبير والتصدي لكل أنواع العنصرية لكن غيري لم يستطع هم فقط يعيشون كل يوم بيومه من أجل الأكل وفقط و بعد ذلك تلقيت مساعدات كبيرة واستطعت أن استجمع نفسي أنا وبعض من هاجر معي لأنه كما تعلم هناك مخاطر كبيرة في الهجرة خاصة لما تكون بدون أوراق فالأمر أصعب وأخطر وأصبحت أشتغل أنا وأخي وأبعث بالمال إلى عائلتي وبعذ ذلك قمت باءحضار زوجتي ونحن نقيمون بالخفجي لكن ليس ثابث كل مرة نقيم في مكان هذا صعب علينا ممكن ممارستنا الاجتماعية وحتى اليومية (المقابلة جرت 10جانفي 2022على الساعة 11صباحا)

فمفهوم الممارسةpraxis في نظرية الممارسة الاجتماعية يعد مفهوما محوريا لإعادة بناءالذات بوصفها كائنا فاعلا وعاقلا تحدده علاقته بالمجتمع من خلال ممارسات مستمرة يشكلها الفعل والبناء، فكلاهما مكمل لآخر. ويكشف الطريقة التي تتشكل بها الحياة الاجتماعية، وهذه التفاعلات تنتج بمجموعها علاقات وطيدة وقوية بين أفراد المجتمع. وتظهر الممارسات الاجتماعية بشكل تلقائي من دون واقعية أو وعي، وقد تظهر بوجود المعرفة التي تمكن الأفراد من إدراك طبيعة الأداء."(عباس هاشم حسن، 2020: ص03)

5- الهوية identity:

يشير مفهوم الهوية في أدبيات العلوم الاجتماعية إلى مجموع الاختلافات القائمة بين الأفراد والجماعات في مستويات معينة تشمل(الجانب البيولوجي، الاجتماعي، النفسي، الثقافي، الاقتصادي، السياسي، الديني والمعرفي)، أي أن الهوية هي مجموعة السمات والخصائص التي تميز الإنسان عن غيره داخل نفس المجتمع أو مجتمع آخر وتتحدد الفروقات بين الأفراد في اللغة، النوع الاجتماعي، السمات والخصائص النفسية، المستوى المعرفي والثقافي، الأدوار والمكانات، الممارسات الطقوسية والدينية، التسمية، أسلوب العيش وغيرها من الفروقات التي تؤسس لمفهوم الخصوصية والاختلاف عن الآخر othor." فالهوية مركب من المعايير، الذي يسمح بتعريف موضوع أو شعور داخلي ما، وينطوي الشعور بالهوية على مجموعة من المشاعر المختلفة، كالشعور بالوحدة، التكامل، الانتماء، القيمة، الاستقلال والشعور بالثقة المبني على أساس من إرادة الوجود."(أليكس مكشيللي، 1993: ص15)

ثانيا- الثقافة وحتمية التغير:

باعتبار الثقافة culture الوعاء الذي يترجم أساليب العيش لدى الإنسان في مستويات مختلفة تتباين من مجتمع لآخر، فهي تعد أحد أهم وأبرز المفاهيم التي استأثرت باهتمام الباحثين خصوصا الأنثروبولوجيين الذين اعتبروها أي(الثقافة)، السياق الذي يساهم في كشف عن مميزات الحياة اليومية لدى الأفراد والجماعات ضمن نطاق الفضاءات التي ينتمون إليها سواء كانت(عشيرة، قبيلة، مجتمع ريفي، مجتمع حضري..الخ)، فهي في نظرهم تتعدى مجرد طريقة تعبيرية عن العيش بل الوراثة الاجتماعية المتصلة بمتغيري الزمان والمكان يتم تمرير عناصرها وترسيخها عبر الممارسة والتكرار ونقل مضامينها عبر التطبيع والتنشئة الاجتماعية، وبذلك تكون الثقافة الوسيلة والمصدر الذي يؤسس من خلاله الإنسان مفهوم نمط العيش، في ظل ثلاثية العلاقة التي تجمع بين(الإنسان، البيئة والثقافة). وعليه" فالثقافة بهذا المعنى هي مجموع نماذج التمثل والفعل التي تضبط من خلال تكرار مفاعيلها كاستعمال التكنولوجيات المادية وطرق تنظيم الحياة الاجتماعية وفكر جماعة ما، إذ كل ذلك يحدد دون شك الشكل أو السمة التي تكون عليها ثقافة محلية أو وطنية ما والتي تتمكن من الاستمرار في الزمن أطول ما يمكن. ومن هذا المنظور فهي(أي الثقافة)، تعتبر مجموعة من الوقائع الاجتماعية التي يمكن أن تكون ذات طابع وظيفي أو بنيوي، والتي يمكن أن تتفاعل وتتداخل فيما بينها لتشكل الجزء الأكبر من الرمزية الاجتماعية symbolismesociale، وهكذا نلاحظ أن أي شيء في الحياة الرمزية لجماعة ما يحيل بالضرورة أو يساعد على فهم أو تفسير جزء من أجزاء هذه الحياة.(عبد الرحمن المالكي، 2015: 45)

لقد مكنتنا المقاربة الأنثروبولوجية بمدينة ورقلة من فهم ظاهرة الهجرة بالإستعانة بالمقابلات التي قمنا بها مع المهاجرين الأفارقة سواء العابرين أو المستقرين بيها وكان هدفنا الوصول إلى طريقة عيشهم وممارساتهام الاجتماعية والثقافية وأهم شي السلوك ونمط العيش الذي يتخدونه داخل المجتمع المحلي حيث كانت جميع تساؤولاتنا تدور حول هذه المتغيرات الثقافة والحياة الاجتماعية والسلوكية ،حيث جميع المهاجرين الأفارقة الذين أقمنا معهم المقابلات أقرو بأن طريقة الهجرة صعبة جدا وأنه يتم دراستها جيدا ومعرفة جميع التغيرات التي سوف تطرأ ربما على وممارساتها وسلوكاتهم وثقافتهم وهويتهم وكيف يجب الحفاظ عليها ضف إلى ذلك تكاليف الهجرة وصعوبة الحصول عليها

وبناء على ذلك، يتمظهر أسلوب العيش لدى جماعة ما أو مجتمع ما من خلال نمط الثقافة السائدة وما تتضمنه من عناصر(مادية ومعنوية)، تدفع الإنسان للمشاركة في تأسيسها حتى يضمن قدر كافي من الإشباع الذي يطال مختلف الحاجات الأساسية لديه مثل(الغذاء، الجنس واللباس)، كما تضمن الممارسة الفعلية للعناصر الثقافية قدر من التكيف والتنظيم الاجتماعيين، فالإنسان يحقق ذلك عبر توظيف أساليب ومصادر مادية ومعنوية مأخوذة من اجتهاداته ومتوارث عبر الأجيال. وعليه يتأسس مفهوم العيش لدى الإنسان عبر الثقافة والحيز الجغرافي" فالثقافة في سياقها الاجتماعي والحضاري والمعرفي عملية تبادل وتفاعل، فلا يمكن اختزال حركة الثقافة في المجتمعات إلى مماثلة بسيطة ذلك أنها ليست جامدة أو ميكانيكية إذ يعترضها التغير وديناميته، لذلك فهي تعكس مختلف التناقضات التي توجد في المجتمع وفي جميع المستويات السياسية والاجتماعية والدينية، وذلك راجع إلى طبيعة البنية الاجتماعية للمجتمعات ومجالات تفاعل الأفراد، كون الفرد فاعلا اجتماعيا يؤثر ويتأثر في مجالات اجتماعية عديدة.(ربيعة تمار، 2020: 11)

فالاستمرارية في أداء الأدوار والممارسة الأنشطة الحياتية لدى الإنسان تدفعه دائما إلى تجديد وتغيير بعض العناصر حتى يضمن فعالية في أدائه ومزيدا من الاشباع لحاجاته، لذلك نجده يعدل ويغير في ثقافته حتى يتحقق له ذلك، وهنا نشير إلى أن الثقافة تميزه خاصة التغير والتحول في عناصرها بناءا على أطوار الحياتية المتعاقبة لدى الإنسان. ومن أوجه التغير التي تطال الثقافة والتي هي موضوع الرئيسي لهذا المقال(ظاهرة الهجرة بصورها ونماذجها المختلفة)، فهي تعكس خاصية التغير في الثقافة الإنسانية كونها تترجم مجموعة الأفعال والأساليب ومستوى المعرفة لدى الإنسان المهاجر الباحث عن الاستقرار بمنافع كبيرة وبأقل تكلفة." فالإنسان باعتباره حيوانا رمزيا أو رامزا، على حد تعبير

ارنست كاسيرر، يتحدد وجوده بالدرجة الأولى عبر بنى رمزية، وهو يطمح في تجربته الفريدة إلى تشييد نظام رمزي يتجاوز به عالمه المادي المحدود، ويؤسس من خلاله بعدا جديدا في الواقع، ويستشعر في الوقت نفسه بأنه ينتمي إلى العالم الإنساني، ويتوحد تحته من أجل تحقيق التواصل الإنساني في بعده الاجتماعي، ولاسيما أن اللغة بنية رمزية نعي من خلالها العالم، وهي تتوسط علاقاتنا بالآخر وصلا وفصلا، بحسب طرق توظيفها وأساليبه.(إدريس مقبول، 2016: 49)

" إن تتبع الميراث المعرفي في الموضوع واستقراء التاريخ يكشف أن الإنسان عرف الهجرة والتهجير لأسباب مختلفة، كان أهمها: الكوارث الطبيعية، مثل الجفاف والزلازل، والعوامل البيئية مثل تخصيب الأرض وانتظار المحصول، البحث عن الماء والمناخ المناسب للعيش وتربية الأنعام، بالإضافة إلى عوامل الجذب والطرد مثل: الحروب، الغزوات والقرصنة والتجارة وغيرها من العوامل التي ساهمت باستمرار في حركية الإنسان وهوامه في حدود جغرافيا الطبيعة، التي تقسو أحيانا وتبسط أحيانا أخرى.(ساسي سفيان، 2017: ص02)

وعلى هذا النحو تعد الهجرة بصورها(شرعية أو غير شرعية)، أحد الأبعاد التي تترجم سببية القيام بهذا الفعل والأهداف المرجوة من خلال نتائجه وتبعاته، فالإنسان عرف الترحال والتنقل عبر أطوار حياته المختلفة والتي اعتبرت سببا في ميلاد المدن وانتشار الاتصال الثقافي بين المجموعات المهاجرة، وقد حظي هذا الموضوع باهتمام موسع من قبل علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا كونها تشكل مصدر مباشر لفهم أساليب التي يعتمد عليها المهاجر في تشييد واقعه المعاش الذي يعرف الحركية المتواصلة في الزمان والمكان. فكيف تساهم الهجرة في فهم نمط العيش؟ وما هي دلالات الهجرة من منظور الأنثروبولوجيا؟

III- النتائج ومناقشتها :

ثالثا: الهجرة من منظور الأنثروبولوجيا:

تعد الأنثروبولوجيا أبرز العلوم الاجتماعية والإنسانية شمولية في دراسة الإنسان من نواحي حياته المختلفة والتي تتعدى مجرد جانب واحد أو عنصر واحد، فالأنثروبولوجيا تعبر عن الدراسة العلمية المتكاملة للإنسان(بيولوجيا، اجتماعيا، ثقافيا ونفسيا)، وهي سياق بحثي يسعى لفهم خصائص ومميزات نمط العيش الذي يتبعه الإنسان في تشييد حياته وما هي العوامل المؤثرة في ذلك؟ وما موقع الثقافة من ذلك؟ وعليه فالإنسان يعد محور أساسي في الدراسات الأنثروبولوجية قديما وحديثا. وحاليا تتجه الدراسات الأنثروبولوجية إلى تركيز على يوميات الإنسان داخل الفضاءات التي يخترقها كيانه المادي والمعنوي متناولة بذلك كل القضايا التي تتصل به والمتمثلة في(العادات والتقاليد، الزواج والقرابة، الممارسات الدينية، الممارسات الترفيهية، التواصل والتفاعل المكاني والزماني، التكنولوجيا والفضاءات الافتراضية، العلاقات الاجتماعية وأساليب استخدام الوسيلة، اللغة ومهارات الاتصال، الاختلافات الجندرية ومناهج التنشئة والتعليم)، وغيرها من القضايا التي تميز الحياة اليومية" فالأنثروبولوجيا بوصفها علم للإنسان في أبعاده المختلفة، البيوفزيائية والاجتماعية والثقافية، فهي علم شامل يجمع بين ميادين ومجالات متباينة ومختلفة بعضها عن بعض، اختلاف علم التشريح عن تاريخ تطور الجنس البشري والجماعات العرقية، وعن دراسة النظم الاجتماعية من سياسية واقتصادية وقرابية ودينية وقانونية، وما إليها. وكذلك عن الابداع الإنساني في مجالات الثقافة المتنوعة التي تشمل التراث الفكري وأنماط القيم وأنساق الفكر والابداع الأدبي والفني، بل والعادات والتقاليد ومظاهر السلوك في المجتمعات الإنسانية المختلفة، وإن كانت لا تزال تعطي عناية خاصة للمجتمعات التقليدية.(سيدي دريس عمار، 2015: ص20)

فوضعية الإنسان داخل الفضاءات الاجتماعية(ريفية كانت أو حضرية، بدائية أو تقليدية أو حديثة)، شكلت حقل خصب للدراسات الأنثروبولوجية لفهم ثقافة جماعة معينة حسب ما أورده الباحث الأنثروبولوجي برونسلاومالينوفيسكي في كون أن المشاركة الفعلية للمجتمع مجال البحث في كل النشاطات والممارسات الحالية يساهم في فهم نسق العيش وخصائصه لدى الأفراد والجماعات، فالثقافة جزء أساسي لتحليل وحدات البناء الاجتماعي في المجتمع" حيث تشكل الأشكال الطبيعية للمخالطة الاجتماعية، والتفاعل الطقسي والسياسي، أفضل فرص للملاحظة، وبالتالي لتوضيح التحركات والأوضاع."(جان كوبان، 2007: ص103)

ومن ضمن الظواهر التي أصبحت اليوم ذات اهتمام موسع من طرف الأنثروبولوجيين(ظاهرة الهجرة سواء شرعية كانت أو غير شرعية)، وأهم ما يميزها على مستوى(التصورات والتمثلات، العوامل والمسببات، سبل بناء نمط عيش في المجتمع الآخر)، فالهجرة من المنظور الأنثروبولوجي تترجم مجموعة من الدلالات والتعابير تتضمن(الهجرة كتعبير عن سلوك أو فعل اجتماعي، الهجرة كوسيلة للاستقرار، الهجرة كانحراف اجتماعي والهجرة كأسلوب تعبيري عن نمط عيش مغاير عن سابقه في السمات والخصائص).

وبعد ملاحظاتنا الميدانية من الجانب الانثروبولوجي وحتى السوسيولوجي أن طريقة السكن والعيش مختلفة تماما للمجتمع المحلي وهذا أثار انتباهنا بمدينة سكرة حيث يتخدون من أبسط الاماكن أحياء للمأوى غائبة فيها كل الظروف الصحية و لا تتوفر على أبسط الحاجيات اليومية كالماء والكهرباء وحتى في بعض المناطق بدون دورات مياه لأنها بالنسبة لهم لا

تكلفهم ماديا ومهما كان المبلغ فهم يتقاسمونه فيما بينهم وقد يبلغ عدد الافراد من 15فرد إلي 20فأصحبت حتى بعض الأحياء تسمى على بلدانهم مثل حي الماليين وغيره وهم يفضلون هذه الأماكن خوفا من السلطات بسبب وضعهم الغير القانوني وقد تعودوا المهاجرين الأفارقة على طريقة العيش هذه خاصة مع المجتمع المحلي بحيث يستقلون الحافلات وتراموای بشكل يومي ويقومون بممارساتهم الاجتماعية وبعض السلوكاتاليومية بشكل غير لافت للإنتباه ،(دراسة ميدانية بمدينة سكرة -ورقلة- ماي2022)

الهجرة كتعبير عن سلوك أو فعل اجتماعي:

تتحدد أولى دلالات الترحال والهجرة من مكان إلى آخر على أنها تعبر عن سلوك أو فعل هادف لإشباع حاجات معينة أو تحقيق أهداف عبر توظيف مختلف الوسائل والأساليب لبلوغ ذلك، فالهجرة هي سلوك وفعل اجتماعي يتوزع بين ما هو(عقلاني وغير عقلاني)، يمارسه المهاجر نظرا لوجود أسباب وعوامل لها اسهام في بعثه، ولعل أهم الحاجات التي يسعى إليها المهاجر(البحث عن الاستقرار الاجتماعي وتحقيق كفاية في الغذاء والمأوى). وعليه، فالهجرة هي ترجمة لفعل اجتماعي هادف سواء تم بطريقة شرعية أو غير شرعية، فالأفراد يمارسون أفعالا متباينة في أهدافها والتي تنبثق عنها مجموعة من النتائج قد تكون إيجابية أو سلبية، وهي حسب ماكس فيبر Max weber" علاقات اجتماعية أي انطلاقا من تصرفات ينتجها الأفراد، أي من خلال ما يقوم به كل فرد اتجاه الآخر مع أخذه بعين الاعتبار ما يمكن أن يحدث نتيجة لهذه التصرفات والسلوكيات. أي أن التوقع يدخل في توجهات تصرف الأفراد اتجاه بعضهم البعض، ومع ذلك لا يمكن أن نقول مثلا عن الشجار أو الصدام الذي قد يحدث بين عاملين في المجال نفسه أنه نشاط اجتماعي، وعلى العكس من ذلك فإن ما يقوم به هذين العاملين من أفعال وتصرفات بعد ذلك الصدام من أجل أن يتفادى أحدهما الآخر أو لكي يتصالحا أو غير ذلك من ردود الفعل هو ما يشكل نشاطا اجتماعيا."(إكرام عدنني، 2013: ص58)

فالإنسان عبر أطوار حياته مارس أفعلا وسلوكات تتوافق وتطلعاته نحو تشيد واقعه، وهذه الممارسة شملت جوانب مختلفة من حياته(أكل، شرب، تعبد طقسي واشباع جنسي)، وغيرها من الممارسات اليومية. وقد اعتبرت الهجرة إلى مكان آخر أسلوب لتحقيق غايات ومقاصد معينة كون أن من أسباب الهجرة هو البحث عن الراحة والاستقرار وتوفير ظروف معيشية جيدة تكفل للمهاجر العيش الجيد" فحاجات الإنسان تعد مصدرا قويا لتفسير السلوك البشري، والتفاعل الاجتماعي؛ فالأفراد جميعهم لديهم حاجات يسعون جاهدين من أجل تلبيتها إما عن طريق اتباع نظام قائم وإما عن طريق القيام بدور اصلاحي أو ثوري، ولذا لابد أن تستجيب النظم الاجتماعية للحاجات الفردية، أو أن تخضع لعدم الثبات، والتغيير القسري، الذي ربما يتم بواسطة العنف والصراع. إذن يحتاج البشر بعض الضروريات؛ من أجل العيش وتحقيق الرفاهية، وتسمى هذه الحاجات الإنسانية"(سلوى السيد عبد القادر، 2017: ص110)

" فمكانات الناس ومواهبهم وقدراتهم غير متساوية، وكذلك الفرص المتاحة لهم داخل أوطانهم وخارجها، قد يشكل هذا دافعا للهجرة والتنقل؛ من أجل تحقيق عديد من الأهداف التي يحددها المهاجر لنفسه، ويسعى جاهدا من أجل تحقيقها كما قد ينشأ عنها نتائج لم يخطط لها المهاجر من قبل؛ فقرار الهجرة ليس قرار سهلا، إذ يتم في ظل معوقات عديدة؛ اقتصادية واجتماعية وثقافية، ويتطلب بذل تضحيات عديدة من جانب المهاجرين، والباقين من ذويهم."(سلوى السيد عبد القادر، 2017: ص121)

2- الهجرة كأسلوب لتحقيق الاستقرار الاجتماعي:

يرتبط الاستقرار الاجتماعي(بالثبات واستمرارية)، أداء الأنساق الاجتماعية الرئيسية والفرعية لوظائفها بانتظام داخل البناء الاجتماعي، فالاستقرار عنصر أساسي في يوميات الإنسان سواء ارتبط ذلك(بالاستقرار الأسري، الزواجي، الاقتصادي، الاستقرار النفسي والعاطفي، الاستقرار الاقتصادي أو العملي أو حتى الاستقرار المكاني)، وهذه المستويات تتباين من نمط ثقافي لآخر ومن فرد إلى فرد آخر، فالبيئة لها تأثيرات مختلفة على نوعية وجودة الحياة التي يعيشها الإنسان وهذه التأثيرات تمس مختلف نواحي حياته لذلك يسعى جاهدا لتكييف وضعه مع المستجدات والأحداث التي تطرحها البيئة عبر توظيف أمثل لمختلف الأساليب والمصادر لتحقيق ذلك، فنجد مثلا أن الأسرة تراعي تطلعات أبنائها لتحقق قدرا من الاستقرار داخل فضاء البيت، ونجد أن العامل يوفر حاجات أسرته لتحقيق قدر من الإشباع لمتطلبات بيته. أما بالنسبة للمهاجر فهو يرى في الهجرة إلى مجتمع آخر وسيلة لتحقيق استقرار معيشي وحياتي والبحث عن الرفاه الاجتماعي لذاته ولأسرته عبر العمل في مجالات معينة لكسب المال وتوفير متطلباته من أكل ولباس ومأوى، فنجد أن المهاجرين الأفارقة في المجتمع الجزائري يعملون في مجالات البناء لجمع المال ويلجئون للتسول لغرض استعطاف الآخر وكسب وده وهناك من يلجأ إلى السحر والشعوذة لتحقيق ذلك. ويقول في هذا الصدد أبو بكر شاب من مالي صاحب 38سنة يتيم الأم تربيت عند جدي حيث علمني ألعيش بطريقة سليمة وكيفية محاربة العوائق لكي نستطيع أن نعيش حياة اجتماعية مستقرة منذ سن 13وأنا معه توقفت عن الدراسة في سن مبكرة وأصبحت أشتغل في الفلاحة وكل ما أجنيه من الفلاحة كنت أعطيه لأبي ليسد حاجات البيت لكن مع الأسف كان يشتري بهم خمرا كنت اشتغل بعيدا عن المنزل والمكان الذي أشتغل به كانت تنقصه اليد العاملة بعد ذلك قررت أن أهاجر من أجل ظروف اجتماعية أحسن وحياة مستقرة فقررت قبل هذا أن أتعلم حرفة تساعدني على الإستقرار فاخترت الحلاقة تعلمتها جيدا ثم بعد ذلك هاجرت إلى تمنراست بغية

العبور للوصول إلى أروبا فوجدت نفسي مستقرا هناك فبدأت أبحث عن عمل ...عملت في البناء عملت في مطعم ثم قررت أن أهاجر إلى ورقلة فذهبت ووجدت عمل هنا وتزوجت والآن انا بأطفالي ووضعي المادي مستقر نوعا ما يقول حتى زوجتي تشتغل خادمة في بيت محترم وهو يقيم بالجزائر منذ 28سنة وأن ظروفه تحسنت نوعا ما (مقابلة بتاريخ : 5ماي 2022 على الساعة:14زوالا)

ومنه تعد الهجرة في نظر الإنسان وسيلة للبحث عن الاستقرار الحياتي واكتشاف طبائع أخرى في فضاءات أخرى وتشكيل علاقات قائمة في جوهرها على محاولة كسب ود الآخر وكسب الثقة حيث يرى في هذا الصدد فليب ديسوكولا" أن الارتباطات التي تجمع بين البشر فيما بينهم وتجمعهم بالأشياء غير البشرية تنقسم إلى ست أشكال من العلاقات: التبادل، الضرواة(العنف)، الهدايا(le don أو العطاء)، الإنتاج، الحماية، الاتصال أو التحويل(transmission)، وبتجميعها تنقسم إلى مجموعتين، ميزة المجموعة الأولى وجود علاقة في اتجاهين بين عناصر متشابهة وهي تضم(الضرواة أو العنف)، الهدايا أو العطاء(le don)، أما المجموعة الثانية فميزة العلاقات فيها تتم في اتجاه واحد تضم: الإنتاج، الحماية والتحويل."(خواجة عبد العزيز بن محمد، 2018: ص24)

3- الهجرة كتعبير عن نمط العيش:

تشكل البيئة بصورها(فيزيقية كانت أو اجتماعية)، الفضاء أو الوعاء الذي تنتظم داخله نشاطات الإنسان وممارساته اليومية المختلفة، فالإنسان يوظف أساليب معينة لتأطير أفعاله وسلوكاته لتتماشى مع ما هو سائد في المجتمع(القيم والمعايير)، وتتحدد يوميات الإنسان عبر نشاطات وممارسات ترسم مفهوم العيش وأساليبه المتباينة من وسط اجتماعي إلى آخر حيث يتضمن هذه النمط(الأكل، الشرب، اللباس، الطقوس، مكان الإقامة، العمل)، وغيرها من العناصر التي تشيد واقع العيش لدى الإنسان، فنمط العيش يعبر عن الطريقة التي يعيش بها الإنسان حياته وأهم ما يميزها(سواء كانت تقليدية أو عصرية)، أو ارتبطت(بالرفاهية أو البؤس والشقاء)، أو ارتبطت بالمجال المكاني(ريفي، حضري)، وكلها صور تعبر عن اختلاف نمط العيش داخل المجتمعات الإنسانية. فالأفراد يلجئون إلى الهجرة إلى مناطق أخرى بحثا عن الاستقرار وتلبية لمتطلباتهم وتطلعاتهم، وهنا تصبح الهجرة وسيلة لبناء نمط عيش يختلف عن سابقه ويكون هذا النمط يتسم بثنائية (إيجابي/ سلبي)، حسب ما هو سائد في المجتمع المحلي، وقد يصبح وضعه مزري وأكثر تدهورا بسبب العراقيل والصعوبات التي يواجهها.

ومن خلال الدراسة الميدانية والاستطلاعية بمدينة سكرة تقول المهاجرة صاحبة40 سنة أنها هاجرت من بلدها مالي فارة باحثة عن نمط عيش أحسن وهذا بسبب الأوضاع الصعبة التي عاشتها في بلادها مع أهل زوجها بعد أن توفي وهو في صفوف الجيش، فتفاقمت الصراعات بينهم مما جعلها تنظم إلى جماعة تهريب (تقول جمعت مالي وملابسي وطفلي متحملة عبأ و مشاق و خطورة السفر حيث أخذو منا الأوراق الثبوتية لحظة وصولنا للحدود الصحراوية)، ثم انتقلت معهم إلى مدينة تمنراست اشتغلت كثيرا تسولت فقط من أجل المأكل والمشرب ثم في يوم ما كانت رفيقتي تقول لما لا نذهب إلى مدينة ورقلة ظروف العيش فيها أحسن وغالبا ما توفر الشغل للمهاجرين خاصة ممن يمتلكون حرفا بين أيديهم فلم أتردد وجئت معها هي وبعض المهاجرين من مدن مختلفة والآن أنا أشتغل هنا أبيع مستلزمات نسائية بالسوق و بالنسبة للسكن فهي تقول نحن نقيم بمسكن جماعي أمام القصر ومازلت لحد الآن أبحث عن الإستقرار أنا وطفلي لأني أطمع في التسوية القانونية فأنا أتواجد بالمدينة منذ 2000.(المقابلة بتاريخ: 20جانفي2019الساعة :10صباحا)

تتحدد يوميات المهاجر داخل المجتمع المحلي في محاولة تحقيق اندماج وانصهار اجتماعيين يكفلان له توفير مستلزمات وحاجاته الضرورية داخل الأحياء التي يتواجد فيها ولا يتحقق ذلك إلا عبر مصادر وأساليب يعتمد عليها المهاجر، فتصورات أفراد المجتمع للمهاجر تتوزع بين ما هو إيجابي وسلبي. في إطار آخر يعتمد المهاجر على استراتيجيات متنوعة لتوفير متطلباته اليومية الأساسية المتمثلة في(الأكل، اللباس، المأوى والبحث عن العمل)، وهي ضرورية في نظره للحفاظ على حياته وحياة أسرته، فالأكل من الحاجات التي لا يمكن الاستغناء عنها نظرا لما يتوفر عليه من فوائد لصحة الإنسان(الجسمية والنفسية والعقلية)، لذلك يعتبر الأكل عنصر أساسي في بنية(نمط العيش)، فالإنسان يحتاج إلى الغذاء لأداء أدواره وواجباته الاجتماعية داخل البيت وخارجه." فالطعام ضروري للحياة ولا بد أن يدخل أجسادنا بكميات كبيرة إذا كان علينا أن نعيش، ولأننا بحاجة ماسة إليه، يشير آرنولدArnold إلى الطعام كان ومازال، وسيظل قوة بأكثر أشكالها الأساسية والملموسة والتي لا مفر منها، ويقدم لابيهوكولينز حجة قوية؛ إذ يقولان إنه لا توجد علامة مطلقة على فقدان الحول والقوة أكثر من الجوع، فالجوع مؤشر صريح على أن الشخص تنقصه القدرة على إشباع أكثر احتياجات الكفاف أساسية لديه."(كارول كونيهان، 2013: ص20)

من خلال هذا الطرح يعد الغذاء أساسي لدى الإنسان، فالمهاجر يبحث عن أساليب معينة لتوفير قدر معين من الغذاء ويتم ذلك عبر(التسول)، العمل مقابل أجر، أو يعتمد على بعض المساعدات التي يقدمها أفراد المجتمع المحلي في سياق الاحسان إلى المحتاج ونيل الأجر حسب تصورات الاجتماعية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يحتاج المهاجر داخل المجتمع المحلي للمأوى لحماية نفسه من الأخطار (الاجتماعية والفيزيقية)، ويعد المسكن أحد العناصر والمصادر الأساسية في تشييد نمط العيش، فالمسكن هو البيئة الفيزاجتماعية التي تفر للإنسان الاستقرار والأمن، كما أنه الوعاء

الذي تتشكل عبر فضاءاته علاقات اجتماعية بين الأسرة الواحدة، كما يعتبر في سياق آخر الوعاء الذي يحمي خصوصية الإنسان ويشكل هويته." " فالمسكن هو المدفن وهو بطن الأم، وقبر الحياة بالتعبير الشعبي العام، ومنه فمخياليا ورمزيا نحن نتحدث في تصنيف وتوصيف البيت/المسكن عن نوع المحاكاة للمسكن بالمدفن وببطن الأم وبالقبر، وكلها في النهاية مجالات فيزيولوجية ورمزية ومخيالية تحمل وتسوق لنوع من الدلالة للاحتواء والحميمية، فالمغارة والكهف والخيمة والنوالة والمنزل هي في النهاية خلاصات لبنى ذهنية وفيزيقية لمعنى المسكن والاحتواء لمعنى المخبأ والمخزن، يقول في هذا السياق Durand Gilbert" المسكن على ارتباط وثيق بالمدفن الأمومي، سواء تحول المدفن إلى مغارة أو بنى على شكل مسكن."(سوالمية نورة وبوشمة الهادي، 2018: ص100)

IV -الخاتمة:

من خلال الطرح السابق يمكن القول، أن الهجرة بأنماطها شكلت أحد أوجه التغير الاجتماعي، كما اعتبرت سياق لفهم نمط العيش لدى المهاجر داخل المجتمع المحلي، وقد ركزت عدة دراسات على الأوضاع المعيشية للمهاجر مركزة على مجموعة من العناصر تمثلت في(أسباب الهجرة ودوافعها، المنطقة التي يختارها المهاجر، تصورات الأفراد للمهاجر، وأوضاع المهاجر داخل المجتمع)، وقد كانت نتائج تلك الدراسات أن الهجرة ترجع لعدة أسباب لعل أبرزها(البحث عن الاستقرار والتكيف وتحقيق مستوى معيشي أفضل من سابقه، الهروب من الواقع المعاش داخل المجتمع الأصلي، البحث عن مصادر لإشباع حاجات مختلفة ومتنوعة)، وغيرها من الأسباب والدوافع التي يمكن اعتبارها جوانب مساهمة في دفع الإنسان للهجرة والتنقل(داخل اقليمه أو خارجه) فخصوصية هذه الظاهرة تتمثل في كونها هجرة قسرية إستجابة لوضعيات ميؤوس منها نتيجة لغياب أي أفق إقتصادي أو تنموي في الدول الإفريقية خاصة فئة الشباب ولهذا وجب التعامل معها بطريقة أخلاقية وإيجابية وعلاجها أو المحاولة التخفيف من حدتها .

مراجع المقال:

1. إدريس مقبول، المدينة العربية الحديثة- قراءة في سوسيولسانية في أعراض مرض التمدن، مجلة عمران، العدد(16)، 2016.
2. إكرام عدنني، سوسيولوجيا الدين والسياسة عند ماكس فيبر، منتدى المعارف، بيروت، ط01، 2013.
3. إلهام زايد، ظاهرة الهجرة في المجتمعات العربية بين الدوافع والتداعيات، مجلة التراث، المجلد 11، العدد01، 2021.
4. أليكس مكشيللي، الهوية، ترجمة علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، ط01، 1993.
5. خواجة عبد العزيز بن محمد، سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي- بناءاتمفاهيمية ومسارات نظرية، نور للنشر، ألمانيا، ط01، 2018.
6. ربيعة تمار، المجالات الاستهلاكية وانتاج التمايز الاجتماعي في المجتمع الجزائري، المركز الديمقراطي العربي، ألمانيا، ط01، 2020.
7. ساسي سفيان، الهجرة غير الشرعية في الجزائر- دراسةسوسيوأنثروبولوجية، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد04، العدد(06)، 2017.
8. سلوى السيد عبد القادر، الثقافة المجتمعية دافعة للهجرة غير المشروعة- دراسة في الأنثروبولوجيا التطبيقية، حوليات آداب عين شمس، المجلد 45، 2017.
9. سوالمية نورة وبوشمة الهادي، الساكن والفضاء السكني علاقة حميمية- مقاربةأنثروبولوجية- مجلة آفاق علمية، مجلد10، العدد02، 2018.
10. سيدي دريس عمار، الأنثروبولوجيا وجغرافية السكان، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، ط01، 2015.
11. عباس هاشم حسن، الممارسات الاجتماعية في مواجهة الأزمات، دراسة تحليلية للمجتمع العراقي في ظل الأزمة الصحية، حوليات كلية آداب عين شمس، جامعة عين الشمس، المجلد40، 2020.
12. عبد الرحمن المالكي، الثقافة والمجال- دراسة في سوسيولوجيا التحضر والهجرة في المغرب، منشورات مختبر سوسيولوجيا التنمية الاجتماعية، فاس، ط01، 2015.
13. كارول.م. كونيهان، أنثروبولوجيا الطعام والجسد- النوع والمعنى والقوة، ترجمة سهام عبد السلام، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط01، 2013.
14. Steve Bruce and Steven yearly, the sage dictionary of sociology, sage publications, London, first published, 2006.